الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الشهيد حمه لخضر الوادي

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية الموسم الجامعي:2021/2020

قسم العلوم الاجتماعية / تخصص: فلسفة المستوى: ثانية ماستر فلسفة عامة

المقياس: فلسفة الدين الأستاذ: عبد الله زين (أ/ محاضر.ب)

المحاضرة 04: الدين والفلسفة/ المقدس في الفكر الفلسفي المعاصر

ثانيا: المقدس في الفكر الفلسفي المعاصر

***تمهيد:**

بالرغم من هيمنة العقلانية على الثقافة العالمية، وسيطرة المعرفة العلمية بمختلف تطبيقاتها التقنية المذهلة، إلا أنها لم توفر بعد أجوبة كافية لكل الأسئلة التي ما فتئ الإنسان يطرحها حول نفسه وحول الكون . لذلك يبدو أن الإنسان لا يستطيع الاستعاضة عن حاجات الروح بالاستغراق في حاجات الجسد، هذا الجسد الذي تضخم- كما يقول " هنري برغسون"- بقدر ما تضاءلت الروح .

إن عدم التناسب وعدم الانسجام بين الجانبين: الزمني والروحي (المادي والروحي) قد يفسّر إلى حد ما أزمة الإنسان المعاصر . تتبدى ملامح هذه الأزمة في مظاهر كثيرة منها: اغتراب الفرد وفقدانه المعنى الذي من شأنه أن يعطي لحياته قيمة، وتفكك الأواصر الاجتماعية وتحول العلاقات في المجتمع إلى مجرّد أنماط إجرائية ووظيفية محطّمة للذات .

إضافة إلى ذلك، يمكننا إبراز مظهر آخر للأزمة الروحية والوجودية التي يعانيها الإنسان المعاصر، وهو ذلك الذي يتمثل في ظاهرة " **المقدّس** " أو ظاهرة "**التقديس**" Sacratisation التي اتخذت أشكالا جديدة، رغم أنها تضرب بجذورها عميقا في تاريخ الثقافات والأديان . لكن هل تمثّل عودة **المقدّس** أو العودة إلى المقدّس مخرجا لأزمة الإنسانية المعاصرة، أم أنها مظهر من مظاهرها ؟

إن الإجابة عن هذا السؤال، تقتضي البحث في طبيعة **المقدّس** وفي وجوده بهدف، بهدف التوصل إلى تحديد قيمته .

1-مفهوم المقدّس:

ما مفهوم **المقدّس** ؟ كيف نفهم **المقدّس** ؟ هل يدل **المقدّس** على تمثّلات ذاتية، مدارها ما هو ماورائي وغيبي ومتعال على الإنسان ؟ هل يدل **المقدّس** على تمثّلات جماعية خاصة بجماعة ذات هوية ثقافية ودينية محدّدة، **المقدّس** عنوانها وتعبيرها الأبرز ؟

المقدّس باللاتنية يعني الممنوع والمنفصل عن الأشياء، ضمن نظام مفارق، ويكون **المقدّس** دائما موضوع احترام من قبل الذين يعتقدون في كونه مقدّسا . يتحدّد **المقدّس** كنقيض أو مقابل للدنيوي (Profane) أو الزمني، ويحيل **المقدّس** دائما إلى ما يتجاوز المعطى المباشر، إلى المفارق و اللازمني والمطلق .

أما في معجم " لالاند La Lande "، **فالمقدّس** بالمعنى العام واللغوي، هو ما ينتمي إلى نظام للأشياء منفصل، مخصوص، غير قابل للخرق، والذي ينبغي أن يكون موضوع احترام ديني من قبل مجموعة الأفراد المؤمنين به . كما تذكر بعض القواميس، أن تحديد **المقدّس** لا يتم إلا بالنظر إلى الزمني أو المدنّس أو الدنيوي (Profane)؛ أي ما لا يدخل في نطاق **المقدّس** . فإذا كان الدنيوي يدل على الدنيء، فإن **المقدّس** يدل على ما هو سام وكامل ومفارق .

يبدو أن **المقدّس** يأخذ معناه داخل ثنائية ميتافيزيقية، تقوم على الانفصال بين عالمين: أحدهما سمته النقصان والتناهي، والثاني سمته الكمال واللاتناهي .

2-أشكال المقدّس:

إن التساؤل حول ما إذا كان **المقدّس** تمثلا ذاتيا مداره ما هو ماورائي ومتعال، أو تمثلا جماعيا يعبّر عن هوية ثقافية ودينية محدّدة ؟ هذا التساؤل يلح علينا طرح علاقة **المقدّس** بالدين، فهل يجوز اختزال **المقدّس** في المقدّس الديني فقط ؟ وهل الظاهرة الدينية هي المجال الوحيد والأساسي **للمقدّس** ؟ أليس **المقدّس** شكلا من أشكال الوعي التاريخي ؟

أثارت التساؤلات المذكورة أعلاه، جدلا بين المفكرين والفلاسفة؛ بحيث أنهم اختلفوا حول هذه المسألة؛ فمنهم من يحصر **المقدّس** في الدين ويربطه به، حتى أن الجانب الديني يكاد يكون هو الجانب الأساسي الذي اهتم به الباحثون في تناولهم لمسألة **المقدّس**، و ضمن هذا الطرح، تأتي مقاربة " غلياد " التي تتمثل في المطابقة بين **المقدّس** والديني؛ والتجربة الدينية لديه هي تحديدا تجربة **المقدّس**، وهي تأخذ أشكالا مختلفة حسب الثقافات والمجتمعات والحقب التاريخية .

لكن يوجد طرح مناقض لما سبق، يفيد بأن **المقدّس** لا يرتبط بالمجال الديني فحسب، بل يتعداه إلى ما هو لا ديني؛ فالأسطورة تعتبر مقدّسا، على الرغم من أنها شكل من أشكال الوعي التاريخي . هذا ما أكده كل من " اميل دوركايم " و " كارل يونغ "، فالأول يعتبر الأسطورة شكلا من أشكال الوعي الجماعي، والثاني يعتبرها شكلا من أشكال اللاوعي الجماعي .

إن الواقعة الأولية في تجربة **المقدّس** - حسب ايميل دوركايم – هي المنع والتحريم والنهي أي " التابو " أو الحرام . وأما **المقدّس** بمعنى ما هو وقف على الآلهة فليس إلا ظاهرة خاصة بالديانات الروحانية . إن المعنى الذي يعطيه " دوركايم " **للمقدّس** (قوة أو محل قوة) لا يبتعد كثيرا عن المعنى الذي يعطيه إياه التيولوجي الألماني" رودلف أوتّو " Rudolf Otto، **المقدّس**

عنده هو موضوع حدس ويطلق عليه Numinse Numineux . إن **المقدّس** عند كل من: دوركايم و أوتّو موضوع تجربة: بالنسبة للأول هو تجربة الاجتماعي، وبالنسبة للثاني هو تجربة الآخر الذي لا يمكن الوصول إليه مباشرة، بل يمكن الاستدلال عليه من خصائص التجربة الروحية ككلّ . في هذا السياق اعتبر " مرتشيا إلياد " Mircia Eliade (1907-1986 م)، أن **المقدّس** موضوع تجربة، وهو يبقى بالرغم من تنوع تمظهراته هو ذاته . إنه قوة وفاعلية ومصدر حياة وخصوبة، وهو يتطابق مع ما هو واقعي . و" أوتّو" يقرّ مثل " دوركايم " بالتقابل بين **المقدّس** والدنيوي، غير أن هذه المقابلة هي عنده بين الواقعي واللاواقعي، في حين أنها عند " دوركايم " بين الاجتماعي والفردي .

النتيجة التي يمكن أن نخلص إليها، هي أن **المقدّس** يحيل إلى المتعالي والمفارق، ولكنه لا ينحصر في الديني فقط، وإنما يتجلى في شكل اللاديني كذلك؛ فكل ما يوحي بالاحترام و التقديس وعدم السماح بالمساس به، يعتبر **مقدّسا**، ويمكن تفسير تعدّد أشكال **المقدّس**، بتعدّد واختلاف ثقافات المجتمعات عبر التاريخ، إذ أن الدين ذاته يتنوع بتنوع المجتمعات، وللمعبودات صور وأشكال مختلفة على حسب الديانة السائدة؛ فالقبائل في بعض مناطق افريقيا قديما تعبد الطوطم، والهندوس يعبدون البقرة، وأصحاب الديانات السماوية- على اختلافاتها - يعبدون الله .

تجدر الإشارة إلى أن التفكير في **المقدّس** يقتضي إيلاء تجربة التديّن المكانة التي تستحقها في إطار الوعي البشري عامة . تقود تلك التجربة الإنسان المتديّن إلى أن حقيقته لا يستمدها من ذاته، بل من كائن آخر أرقى وأسمى (الله أو الآلهة أو الأرواح) هو **المقدّس** الحقيقي .

« يتجلى هذا **المقدّس** عبر العالم الحسيّ ويتخذ أشكالا ظاهرة تخرج عن نطاق ما هو متداول ومتعارف عليه . إن التديّن في بعده العقائدي كما في بعده الطقوسي، يمثّل الإطار الأساسي لتبلور ملامح التجربة التقديسية » .

تجربة **المقدّس** هي مجال روحي لتشكل الوعي البشري، الذي يترقى من إدراك المعطى الحسي المباشر (الوعي الطبيعي) إلى تمثّل عالم ماورائي خفي وغيبي، ولكنه واقعي بل أكثر واقعية من العالم الطبيعي . إن تجربة **المقدّس** تمكّن بسهولة من الانتقال من عالم الآن وهنا إلى عالم القداسة، حيث الزمان هو الأبدية والفضاء لا متناه . إن **المقدّس**- وإن كان ممنوعا، عصيا، مثيرا للرهبة وجديرا بالاحترام - فإنه يكون أيضا في متناول المؤمن المتكشّف عن سرّه .

3-المقدّس والعنف:

لئن كانت العلاقة بين **المقدّس** والعنف قديمة قدم الصراع بين الإنسان وأخيه الإنسان، فإن هذه العلاقة تأخذ اليوم أبعادا كثيرة، منها: الرمزي، المادي، السياسي، الأيديولوجي وغيرها . نشهد اليوم بروزا شديدا لعنف رمزي ومادي يمارس من طرف الأفراد وكذا الجماعات، وهو لا يهدف إلى إيذاء الآخر أو تحقيره فقط، بل أيضا إلى قتله، عنف موجّه ضد الحياة .

إن خطورة الأمر تكمن في كون هذا العنف يستند إلى مرجعيات هي في أغلب الأحيان دينية، تبرّره وتضفي عليه " قداسة ما "، بحيث لا يكون مرتكبه محل إدانة، وما يلاحظ هو أن " **العنف المقدّس** " الذي يمارس بدعوى مواجهة الاعتداء على ما يعتبر " مقدّسا "، لا يطال الآخر المختلف في الدين أو في العقيدة، بل يطال أحيانا الآخر الشريك في الملّة والدين (العنف بين أتباع مذاهب مختلفة في إطار الدين الواحد، مثل الصراع العنيف بين الكاثوليك والبروتستانت في أوروبا، والصراع بين طائفتي السنّة والشيعة في التاريخ الإسلامي وفي الوقت الراهن) .

لا شك أن هذا العنف الذي برّر دينيا، والذي تضفى عليه صفة القداسة، هو من الخطورة بما كان؛ بحيث يهدّد التماسك الاجتماعي واستقرار الدول، وهو ما يتعارض مع الوظيفة التي أسندتها مدرسة علم الاجتماع الكلاسيكية للدين وإلى **المقدّس الديني**، والمتمثلة في حماية وحدة المجتمع وضمان لحمته . وقبل ذلك الدين الإسلامي الذي جاء لحفظ حقوق الأفراد والجماعات، من خلال تحريم كل ما من شأنه أن يلحق الضرر بالفرد والمجتمع؛ فللشرع الإسلامي مقاصد هامة أبرزها: حفظ الدين، وحفظ النفس، وحفظ العقل، وحفظ المال وغيرها، لذلك حرّم الإسلام الشرك والقتل وشرب الخمر والربا وأكل أموال الناس بالباطل .

كي ينفصل **المقدّس** عن ظاهرة العنف، لابد من التعاطي مع المقدّس - خاصة الديني منه -، بصورة صحيحة، والأساس في ذلك الفهم الصحيح له، واعتماد الفكر التنويري المعتدل والمتوازن، الذي ينبذ كل نزعة للتعصب والتطرّف، ولا أدل على ذلك من الحركات الدينية المعتدلة وما لعبته من أدوار في تحقيق التماسك الاجتماعي والحفاظ على لحمة المجتمع، ومقابل ذلك، فإن الحركات الدينية المتطرّفة قد أساءت لمجتمعاتها، في الوقت الذي أرادت فيه الدفاع عن مقدّسات تلك المجتمعات، فالقوى السياسية الغربية اليوم، استطاعت توظيف نزعة التطرف لدى بعض الحركات الدينية، - خاصة الإسلامية منها- في تنفيذ مخططاتها وبث سمومها في أوساط العالم الإسلامي، والمشاكل والاضطرابات التي تعانيها بعض الدول العربية والإسلامية خير دليل على ذلك .

4-المقدّس اليوم:

باعتبار **المقدّس** تجربة روحية ووجدانية، وبغض النظر عن مضمونها سواء كان المجتمع أو الله أو الحياة...الخ، فما هي مكانة **المقدّس** في حياة الإنسان اليوم ؟ وأي دور يلعبه **المقدّس** اليوم؟

إذا **المقدّس** قديما، قد قام ببعض الوظائف والأدوار مثل: تعويض الضعف إزاء الطبيعة، الانتصار على الموت، توطيد السلطة السياسية وتبريرها)، **فالمقدّس الديني** اليوم، يلعب الأدوار نفسها وإن بشكل نسبي، فالإنسان المعاصر وقد أصبح أقوى بواسطة الآلات، لم يتخلص بعد من ضعفه المتأصّل في طبيعته الحيوانية . إنه يخاف من المرض ومن السلطة ومما تخبئه له الأقدار، كما يخاف من الموت، سواء آمن بوجود حياة بعد الموت أم لا . كما أنه يعاني القلق الميتافيزيقي بسبب شعوره بهشاشته وتناهيه في نفس الوقت الذي يتمثّل فيه اللامتناهي والمطلق . وبين هذين البعدين، التناهي واللاتناهي، الحياة والموت، الواقع والممكن، يشعر بالضياع . ولعله يجد في **المقّدس الديني** دليلا لحيرته وجوابا عن أسئلته . من خلال **المقدّس** وخاصة **المقّدس الديني**، عبّر الإنسان في كل العصور عن تطلعاته، و هي لا شك اختلفت باختلاف الوضعيات والتجارب التاريخية .

بالرغم من انتشار الثقافة العلمية وهيمنة النزعة الأداتية وسيطرة النزعة الاستهلاكية في جل المجتمعات المعاصرة، فإننا لا نستطيع الإقرار بصورة قطعية بأفول **المقدّس**؛ **فالمقدّس الديني** مازال يشكّل الوعي الفردي والجماعي، ويسم الثقافات الخصوصية بسمة خاصة (الثقافة العربية، اليهودية، المجتمعات الدينية المغلقة أو شبه المغلقة) . إضافة إلى **المقدّس الديني** ثمة نوع آخر من **المقدّس**، هو الذي لا يحيل إلى مرجعية دينية محدّدة، وهو ما يمكن أن نسميه بـ **" المقدّس اللاديني " .**

في مجتمعات كثيرة اليوم، وخاصة المجتمعات العربية والمسلمة، يمثّل **المقدّس** مرجعية أساسية للتقويم وتحديد الاختيارات الخاصة والعامة، وهو أيضا العنصر المشكّل للوعي الجمعي . يتضح هذا الأمر من خلال ارتباط **المقدّس** لا بالحياة والموت فقط، بل أيضا بالصراع الاجتماعي وبالسلطة والأيديولوجيا .

إن المقدّسات تستمد قيمتها وتأخذ مكانتها في إطار ثقافة معينة وضمن تأويل معيّن للهوية ولعناصرها التأسيسية ونصوصها التراثية. وفي هذا السياق يتجلى البعد الأيديولوجي **للمقدّس** وتتضح مكانته في استراتيجيات الهيمنة. فمن أجل تحقيق المصالح المادية الفئوية والنخبوية والطبقية، ليس ثمة من وسيلة أفضل وأنجع من توظيف أيديولوجيا **المقدّس**، وخاصة **المقدّس الديني** . ويمكن أن نذكر هنا مقولات التحريم والمنع المنتشرة في الثقافة العربية الإسلامية الشعبية: تحريم " شق الصّف " أو " الخروج على الحاكم " أو " الخروج على إجماع الأمة "...الخ .

أنظر: مدخل إلى فلسفة الدين، مجموعة من الأكاديميين، تحرير: عامر عبد زيد الوائلي، شريف الدين بن دوبه، ابن النديم للنشر والتوزيع، الجزائر، دار الروافد الثقافية، بيروت، 2016، ص: 131-175 .